معرض

بحثاً عن "الضاحية" في "هنغار أمم"

"من طفولتي كنت أنا وأخوتي وولاد الجيران حطلهن ستارة... وأقعد وراهما، ضوّي ورايي لمبة، هون... وإطفي الضو عندهن هونيك... إعمل بكرتون أشخاص، والكرتونة حطلها من خلفها خشبة صغيرة ألقطهافيهاوصير حرّكهاوراالبداية، ويطلع من ورايي خيالهن، وقلّهن هيدا فيلم سينما." يتذكر محمد حمود بكثير من الحنين، راوياً تفاصيل علاقته بمهنته. هو مشغّل ماكينات العرض السينمائي، عمل في الستينات والسبعينات في سينمات الضاحية الجنوبية، التي لم تكن قد سميت بعد ضاحية.

تدخل إلى "هنغار أمم" كالداخل على ذكريات المنطقة التي تحيط به، وإلى ذكريات الناس الذين كانوا يشغلون هذه المنطقة. شهادات مسجلة على سيديهات، وملصقات تروي قصص التحول، من إلى...

تمّ بناء الهنغار في الخمسينات كمستودع لتوضيب الخضر والفاكهة المعدة للتصدير وحفظها، حين كان "ساحل المتن الجنوبي" مجموعة قرى تعتمد على الزراعة، على ما تبيّن الشهادات في المعرض. ثم تحول في الستينات إلى مزرعة لتربية الدجاج حين صارت المنطقة ضاحيةً تمتلك شبهة المدينة. ظهرت حينذاك السينمات التي اشتغل فيها محمد حمود، ومنها "راديو" و"بالاس". ثم مع الزمن، وبعد توقف عن الاستخدام في أثناء الحرب الأهلية، تحوّل المكان إلى هنغار يعنى بالشؤون الثقافية داخل ما يسمّى الآن "ضاحية بيروت الجنوبية".

هذه الحكاية المختصرة هي أول ما تراه وتقرأه معلّقاً على الجدار داخل المعرض. تبدو هذه القصة هي الحدث الرئيسي الذي يلمّ حوله الكثير من الحوادث الفرعية المتفرقة والتي تمنح هذه الحكاية بعدها الاجتماعي والزمني. الهنغار يحكي تاريخه، ويلمّ حكايات محيطه كما تفعل الرواية. الهنغار، إذاً، هو رواية قيد الانشاء. لكن أليست الحوادث الفرعية هي أهم ما في الروايات؟ أليست هي السبب الحقيقي للسرد؟ هي كذلك أيضاً في معرض "بحثاً عن الضاحية".

المعرض الذي افتتح في 24 أيار، مستمراً إلى 16 حزيران، يحاول أن يطلق الحكاية من الشخصي إلى العام. محاولة روائية بامتياز، لا ينقصها أي عنصر من عناصر الرواية. إلا أنها مكتوبة بشكل جماعي، كما أنها لا تقترح أي نهاية.

رواية وجودية على جدار

إنها رواية لا تنتهي. كي تنتهي الرواية، على المكان أن ينتهي، وأن يتوقف عن التحولات.

لا يدّعي المعرض، وليس في مورد التواضع، أنه يقدّم عملاً منتهياً. يفتح مساحة فارغة على جدرانه للآتين إليه أن يرسموا طريق سيرهم، أو أن يسجلوا أسماء أماكنهم المفضلة. على هذا الجدار يبنى المكان الجديد الذي أصبح "الضاحية". أما الجدران الأخرى فهي الرواية، تاريخ المكان القديم الذي كان "ساحل المتن الجنوبي".

بين التسميتين، ثمة الكثير من الدلالات الفارقة. الكثير من المساحات التي امتلأت بنياناً كثيفاً. الكثير من الشوارع التي لا أرقام لها ولا أسماء. الكثير من "زهر الليمون" المقطوع، من البساتين المهدمة. الكثير من المباني المهدمة في حارة حريك. من خلال الشهادات الكثيرة التي تستمع إليها، يمكنك أن تستنتج المعادلة الآتية: "إن بناء الضاحية كان على حساب تهديم ساحل المتن الجنوبي". في هذه المعادلة - المعضلة، مفارقات كثيرة: تحول المكان من الاجتماع المتعدد الطائفة إلى الاجتماع ذي البعد الطائفي الواحد. من شبه المدينة ذات المساحات الخضراء الكبيرة، إلى المدينة ذات الشوارع الضيقة، والمباني المتلاصقة. من عشرات السينمات والمقاهي والمتنزهات إلى "صفر" سينما، "صفر" متنزهات وعدد قليل من المقاهي الشعبية. وتفترض هذه المعادلة مفارقة مخيفة مفادها أن "ساحل المتن الجنوبي" قد فرغ، كي تحل مكانه "الضاحية". تتحول التسميتان هنا إلى "صفة"، صفة تحيل على التاريخ وكل القيم المرتبطة به، وصفة تحيل على واقع الحال الآني وكل القيم المرتبطة به. تبقى الصفتان تتنازعان المكان، على الرغم من الفوز المفترض لصفة "الضاحية"، إلا أن فراغاً ما قد حل على المكان في حارة حريك أعاد الصفة الأولى - "ساحل المتن الجنوبي" إلى التداول. عندما تهدمت حارة حريك "الضاحيوية" رأينا تراب "ساحل المتن الجنوبي". ذلك هو الانطباع الذي خرجت به من المعرض.

أخطر ما في هذه المعادلة، وهذا ليس في سبيل الانقاص من أهميتها بل في معرض مناقشتها، هو بقاء هذا الصراع الخفي على المكان. هو هذا الخوف، هذه الغرابة التي فرضها تدمير قسم من الضاحية.

في عودٍ الى الربط بسياق رواية الهنغار لنفسه، فها هو "الهنغار"، بصيغته الضاحيوية التي تلبست شكل واحة ثقافية وحيدة في هذا المكان الهائل، يستعيد بحنين العائد إلى جذوره صورته "المتنية"، يعلقها على جدار قبالة واقعه الحالي، في إطار سؤال وجودي: "إلى من أنتمي؟"

هي إذاً رواية وجودية، أشبه ما تكون برواية "الغريب" لألبر كامو. رواية مبنية على مصادفة عودة المكان إلى جذوره، مبنية على سؤال الانتماء. "هل المكان أرض وحسب، أم أن المكان تاريخ قائم ومستقبل سوف يأتي"؟ البطل في رواية "بحثاً عن الضاحية" هو الهنغار، الذي تضرر في الاعتداءات الاسرائيلية عام 2006. جريمة تستحق التوقف عندها كي يتساءل عن ماهيته.

على هامش هذه التساؤلات، يلفتنا هذا العمل التوثيقي الكثير الأهمية والذي سوف يستمر مع الزمن. هذه الحكايات الخاصة تثبت أنها هي وحدها القادرة على صوغة شخصية الأمكنة، والتاريخ. من الكنيسة التي تحولت جامعاً "في عهدة الإمام الصدر"، من بساتين الزيتون التي تحولت أوتوستراداً باسم "الشهيد السيد هادي نصرالله"، من السينمات العامرة التي تحولت خراباً، من طريق المطار الذي كان متنزهاً وتحول عشوائيات، من الجناح قبلة الأغنياء والسياح الذي تحول ملجأ المعوزين، يرتدي معرض "بحثاً عن الضاحية" صورة الرواية التي لن تنتهي، قصة "الضاحية" مكاناً وصفة.

علي زراقط